"زيارة لعالم القصة القصيرة عند خيرى شلبى"

بقلم: أبو المعاطى أبو النجا

لأن روايات خيرى شلبى المتفردة بعمق تصويرها لحياة المهمشين في قرى مصر ومدنها على السواء هي التى ظلت مستأثرة باهتمام القراء والنقاد ، فقد آثرت في هذا المقال أن أصحب القارئ في زيارة خاطفة لعالم القصة القصيرة عند خيرى شلبى الذى ربما لم ينل ما يستحقه من اهتمام القراء والنقاد مع أنه يصدر من النبع الصافي العميق ذاته!

فى القصص القصيرة لخيرى شلبى سوف تلتقي بالعديد من المهمشين الذين التقيت بهم فى رواياته ، في عشوائيات المدن والقرى، وسوف يسردون لك حكاياتهم باللهجة نفسها التى يتكلمون بها بعضهم لبعض أو لأنفسهم، وهذه سمة من السمات المميزة لروايات خيرى شلبى وقصصة القصيرة على السواء ولكن نزعة الحكى القوية في روايات خيرى شلبى تتراجع قليلا أو كثيرا في قصصه القصيرة ربما خضوعا لقانون القصة القصيرة التى يقول عنها الناقد وكاتب القصة الإيرلندى "فرانك اوكونور"في الصوت المنفرد" "إنها الأدب الخالص"، يعنى الذى لا يحتمل الثرثرة أو الغنائية التى يمكن أن تحتملها الرواية، ويقدم أوكونور نموذجا مقتبسا من حياة بارنيل ومن قصة ج.د. سالينجر للإيجاز الذى ينبغى أن تكون عليه القصة القصيرة فيقول:

"إنها قصة زوج مخدوع يسأل تليفونيا أعز صديق له عن زوجته التى تأخرت في الخارج دون أن يشك للحظة في أن الزوجة موجودة في فراش أعز الأصدقاء هذا ويسرى أعز الأصدقاء عنه بطريقة جافة معدة، وأخيرا يتصل الزوج المخدوع مرة أخرى، ذلك الرجل الطيب الذى ربما خجل من اعترافه المتسرع، وربما من إزعاجه لصديقه ليقول إن زوجته عادت إلى المنزل مع أنها كانت لا تزال في الفراش مع عشيقها" فالقصة القصيرة باختصار "هى التى تحدث أعمق الأثر بأقل قدر من الكلمات".

وحين نلقى نظرة طائر على القصص القصيرة الموزعة في مجموعات خيرى شلبي القصصية التى من أهمها "أسباب للكي بالنار" "الدساس"، "سارق الفرح"، "عدل المسامير" ، "تقليب المراجع" ، "ما ليس يضمنه" فلعلنا نلاحظ أن هذه القصص يمكن أن تتوزع بين ثلاثة مستويات مستوى يستجيب لشروط القصة القصيرة كما حددها أكونور" وتستحق أن يقال عنها أنها الأدب الخالص ومستوى يحاول الاستجابة لشروط القصة القصيرة، ولكنه يقع في غوايه الحكي الآسرة عند خيرى شلبي فتبدو القصة القصيرة وكأنها جزء سقط سهوا من رواية كان يكتبها خيرى شلبى ثم لم يستكملها لأى سبب ومستوى ينجح فيه خيرى شلبي فى أن يوظف نزعة الحكي فى خدمة شروط القصة القصيرة حيث يصبح الحكى أدبا خالصا لأنه يجسد لحظات صحو ذاكرة مقموعة لم تجد طريقا للنجاة من عصف الألم سوى بالنسيان.

وسوف نكتفي في حدود هذا المقال بتقديم قصة قصيرة لكل مستوى من هذه المستويات.

وكنموذج للمستوى الأول الذى تصبح فيه القصة القصيرة أدبا خالصا نقدم قصة بعنوان "بتاعة الحلاوه" القصة مقدمة من خلال شاب يعمل مدرساً في كلية طب المنصورة في طريقه إلى باب الكلية يلحق بعجوز تمشى ببطء يرغم السيارات على انتظارها ، تحمل فوق رأسها قفة صغيرة مغطاة بثوب قديم، حين يراها عن قرب يتأكد له أنها هى نفسها أم صلاح التى كانت تبيع الحلوى لأطفال المدرسة التى كان تلميذا بها بالقرية مع أبنها صلاح الذى هو الآن زميل له في كلية الطب، هو لم يرها منذ تلك السنوات، ولا يعرف شيئا عن علاقتها بأبنها ، ويكون من الطبيعى أن يستعيد زمالته لصلاح في الإعدادى والثانوى وكيف أوصله نبوغه إلى كلية الطب ، وكيف كان أهل القرية ، وبخاصة اغنياؤها الذين لم ينجح أبناؤهم في الحصول على مجموع يؤهلهم لكلية الطب ينظرون إلى هذا التفوق ؟! حين لحق بها كانت تعيد على مسامعه السؤال الذى لم تجد من يشفى غليلها بالرد عليه والنبي ياسعادة البك ما تعرفش تلميذ هنا أسمه صلاح البدوى؟ فيرد قائلا مبتسما: تقصدين الدكتور صلاح؟ فتقول: طب والنبي تقول له: فيه واحده مستنياك بّره يقول لها: حضرتك أمه؟! ترد وهى مرتكبه : لأ لأ بس قل له وهو حيعرف؟

يصيح فيها : أقول له مين يعنى؟

ترد : قل له جارتكم بتاعة الحلاوه!

هل تحتاج مثل هذه القصة إلى أى تعليق لمتابعة ما توحى به من دلالات في كل الاتجاهات ؟ أليس هذا هو الأدب الخالص؟ أعمق تأثير بأقل قدر من الكلمات يمكن أن نشير إلى قصة "السلعوة" كنموذج للمستوى الثانى، وهو المستوى الذى يستجيب لشروط القصة القصيرة ولكنه يقع في غواية الحكى فيضيف إلى القصة الأصلية ما قد لا تكون في أية حاجة إليه ولكنها غواية الحكي سامحها الله فتبدوا القصة وكأنها جزء من رواية لم تكتمل.

الفكرة المحورية في القصة هى كيف تولد الأسطورة من امتزاج الخوف بالجهل، والحدث الذى يجسد الفكرة هو أن " كلبة يزيد" الطيبة والشجاعة والغلبانه في الوقت ذاته والتى هى في الوقت ذاته كلبة العمدة الذى بات يحمل بعض هذه الصفات بعد أن تغيرت أحوال الناس وبعد أن سافر الغلابة الذين لم يكونوا شيئا يذكر بالنسبة لجناب العمدة إلى بلاد النفط وعادوا ليشمخوا عليه بأنوفهم ويبنون بيوتا وسرايات جديدة تفوق بيته الذى كان أعظم البيوت في القرية، فجأة تفزع القرية إلى العمدة وهى تتحدث عن كارثة عظمى تهدد الناس جميعا هى ظهور السلعوة، وكل واحد يتحدث عما قتلت من طيور وحيوانات وروعت من صغار وكبار يأمر العمدة الخفر بأن يطلقوا النار على أى جسم يتحرك في الليل أو في النهار، فتتعدد مصادر الخوف والفزع وحين يلوح أنهم قتلوا السلعوة، فيكتشفون أنهم لم يقتلوا سوى كلبة

يزيد الطيبة والشجاعة والغلبانة مثل صاحبها العمدة وأن الكلبة التى انحشر رأسها في آنيه فخارية كانت تلحس ما بداخلها من سمن، ولم تعد تعرف كيف تتخلص من هذا المأزق هى التى أحدثت في جريها المتخبط والمذعور كل هذا الفزع الأكبر.

القصة الأصلية للسلعوة تغرق في الحكي كما غرق العمدة فى أفواج القادمين من بلاد النفط والتى هى دون جدال رواية لم تكتمل أما المستوى الثالث فهو الذى تتحقق فيه معجزة التلاءم بين روعة الحكاية وشروط القصة القصيرة فهي تتمثل في قصة "الساقه" فهذه القصة الرائعة التى لا تخرج عن كونها مجرد وصف متعدد الدرجات والمراحل لطوابير الأنفار التى كانت تعمل في الوسية، هذه المصطلحات التى أصبحت جزءا من التاريخ...

هذه القصة القصيرة الطويلة الرائعة تكاد تقدم تاريخ المجتمع المصرى الذى يقع في آلاف السنين فحين تكون الذاكرة هى التى تقطع هذه المسافات، وهى التى ترى الوسية تتسع بحجم الوطن، والتى تكتشف انه يوجد بين الأنفار طبقات تفصل بين الطويل والقصير والصحيح والعليل ، وأنه يوجد بين رؤسائهم وجلاديهم طبقات تفصل بين الخولي والباش خولى والمفتش والناظر، أصحاب الوسية وحدهم والذين لا يراهم أحد هم الذين يبدو بسبب الغياب أنهم طبقة واحدة.

حين يكون كل ذلك من ألعاب الذاكرة فإن كل غوايات الحكى تصبح بعضا من شروط القصة القصيرة!